الشاعر الصنوبري

—«»—

قلما أنظر في كتاب موضوعه الشعر والادب العربي الا و يبرز لي في اثناء سطوره شيء من الشعر الرائع المنسوب الى الصنوبري اذ يقول مورده (قال الصنوبري) او (وللصنوبري) مقتصراً على هذه الكلمة غير مصرح باسمه ونسبه وشيء من سيرته . وقد لفت نظري كثرة ورود هذه الكلمة الى عظمة الصنوبري ونبهني الى علو كعبه بين شعراء عصره وصوره لي في مخيلتي شاعراً مفلقاً واديباً كبيراً جديراً بان يماط الحجاب عن اسمه ووطنه وشيء من سيرته وعن العصر الذي وجد فيه وتاريخ وفاته خصوصاً وقد رأيت في عنوان بعض ما ينسب اليه من الاشعار كلمة (الحلبي) فقد ضاعفت هذه الكلمة شوقي الى الوقوف على حقيقته والإشراف على شيء من سيرته حرصاً على الفخر الذي يحرزه بلدي من هذه الناحية وتعصباً لرجل يهمل فيبقى شعره مبعثراً في شتى الكتب ومطاوي صحف التاريخ ، فجمعت نبذة من أخباره وبحثت عن هذه المقاصد وجلت في كتب الادب جولة تتبع واستقصاء حتى تيسر لي شيء مما قصدت واردت فجمعت من أشعاره زهاء اربعمائة بيت ولم ازل دائباً في البحث عنها واثبتُ في ترجمته مقدمة مختصرة وكان اول سفر عثرت فيه على كلمات في هذا الشاعر — مجموعاً قديماً مخطوطاً قال فيه صاحبه :

« احمد ابو بكر بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي الشاعر المعروف بالصنوبري تكلم جده بين يدي المأمون فأعجبه شكله فقال انك لصنوبري الشكل فلزمه هذا اللقب ، وهو ممن يضرب بالمثل بروضيانه توفي سنة ٣٣٤ » ثم قرأت في كتاب فوات الوفيات للكتبي ما صورته :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« احمد بن محمد الصبني الحلبي الصنوبري » ثم اورد نبذة من اشعاره مقتصراً على ذلك دون ان يتعرض لشيء من اخباره وتاريخ وفاته ، بعد هذا قرأت في كتاب معجم البلدان لياقوت عند الكلام على حلب ما نسخته : وقد اكثر الشعراء من ذكرها (حلب) ووصفها والحنين اليها وانا اقنع من ذلك بقصيدة لابي بكر محمد بن الحسن بن مروان الصنوبري وقد اجاد بها ووصف منتزهاتها وقراها القريبة منها ثم اورد القصيدة التي اولها :

احبس العيس أحبساها وسلا الدار سلاها

وهي قصيدة طويلة تعد ١٠٣ ابيات .

ثم رأيت في تاريخ الشام الكبير لابن عساكر ما نصه :

« احمد بن محمد بن الحسين بن مرار الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي الشاعر المحسن اكثر اشعاره في وصف الرياض والأنوار قدم دمشق وله اشعار في وصفها ووصف منتزهاتها ، قال عبدالله الصقري سألت الصنوبري عن السبب الذي من اجله نسب جده الى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال لي كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت المأمون فجرت له بين يديه مناظرة فاستحسن كلامه وحدة مزاجه فقال له انك لصنوبري الشكل يريد بذلك الذكاء وحدة المزاج اه .

وقرأت في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني ماخلاصته : ان الصنوبري كان يسمى حبيباً الاصغر لجودة شعره ، قال ولقيه المتنبي بالمصيصة او غيرها فقال له يهزأ به ، انت صاحب بغادين يريد قصيدته :

شربنا في بغادين[1] على تلك الميادين

لما فيها من المجون والخلاعة فقال له الصنوبري وانت صاحب الطرطبة يريد قصيدته :

---

(١) بغادين بغين معجمة ودال مهملة — غلط صوابه بعاذين بعين مهملة وذال معجمة — علم على ناحية من بساتين حلب وكانت قبلاً علماً على قرية في موضع هذه الناحية قال فيها ابو العباس الصفري من شعراء سيف الدولة :

يا لأيامنا بمرج بعاذين وقد اضحك الربا نواره
وكأن الشقيق والريح تنفي الطل عنه جمر بطير شراره
اذكرتني عناق من بان عني شخصه باعتناقها اشجاره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما انصف القوم ضبه وامه الطرطبة

لما فيها من اللين والركاكة اه .

وقرأت في كتاب يتيمة الدهر للثعالبي ماصورته :

« وحكى ابن جني قال حدثني ابو علي الحسين بن احمد الصنوبري قال خرجت من حلب أريد سيف الدولة فلما برزت من السور اذ انا بفارس ملثم قد اهوى نحوي برمح طويل الى صدري فكدت اطرح بنفسي عن دابتي فلما قرب مني ثنى السنان وحدقت به فاذا المتنبي وانشدني :

نثرنا[1] رؤوساً بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال كيف ترى هذا القول أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتني . قال الثعالبي : قال ابن جني فحكيت انا هذه الحكاية بمدينة السلام لابي الطيب فعرفها وضحك لها وذكر اباعلي من التقريظ والثناء بمايقال في مثله . قال وانشدت اباعلي ليلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها :

« واحر قلباه ممن قلبه شبم » الخ فلما وصلت الى قوله :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

اعجبه جداً ولم يزل يستعيده حتى حفظه اه .

الاختلاف في ترجمة الصنوبري — اذا امعنا النظر في ترجمة الصنوبري التي اتى بها كل واحد من صاحب المجموع المخطوط وفوات الوفيات ومعجم البلدان وابن عساكر وابن جني — فاننا لاول وهلة يظهر لنا اختلاف عظيم في اسم الصنوبري واسم ابيه وجده وجد ابيه ووصفه مرة بالصيني وأخرى بالضبي وتسمية ياقوت لجده بمروان وتسمية ابن عساكر لجد ابيه بمرار وتفرد ابن جني باسمه واسم ابيه دون جميع من ذكرناهم ممن ترجموا له :

(١) هذا البيت من جملة ابيات من قصيدة للمتنبي اولها :

« على قدر اهل العزم تأتي العزائم » الخ .

واصل هذا البيت في هذه القصيدة هكذا :

نثرتهم فوق الأحيدب كله كانثرت فوق العروس الدراهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اما انا فانبع باسمه واسم ابيه ونسبه — الاكثرية التي تتألف من صاحب المجموع المخطوط وصاحب الفوات وابن عساكر فأقول هو « احمد بن محمد الصيني الصنوبري الحلبي » وان كلمة الضبي الواردة فيما ترجم له ابن عساكر — محرفة عن الصيني ، احتار هذا في ترجمته واقتصر عليه واوكل تصحيح اسم جده وجد ابيه الى رائدي لتحقيق والبحث عنهما في معاجم الادباء وكتب التاريخ .

تاريخ وفاته — اما تاريخ وفاته فلم أر من صرح به سوى صاحب المجموع فزعم انها كانت في سنة ٣٣٤ ، وهذا بلا ريب تاريخ مغلوط اذا سلمنا بصحة الحكاية التي اوردها صاحب اليتيمة عن ابن جني فانها كادت تفيدنا صراحة ان الصنوبري كان في سنة ٣٤٦ حياً يُرزق ، نستفيد هذا من قول ابن جني : وانشدت اباعلي لبلاً قصيدة ابي الطيب التي اولها : واحر قلباه الخ فان هذه القصيدة آخر ما نظمه ابو الطيب في حلب اي انه نظمها حين فارق سيف الدولة وذلك في السنة المذكورة . وعلى كل حال فان تاريخ وفاة الصنوبري لا يخلو من إبهام فهو يحتاج الى تدقيق عميق .

عدم التنوع في شعر الصنوبري — رأيي في الصنوبري من هذه الجهة انه كان عالي النفس ضنيناً بماء محياه عن ان يبذله في طلب جوائز ممدوح صائناً لسانه عن قول الهجر والبذاء في هجاء من ناوأه او عاداه ، يقول الشعر تأدبا لا تكسباً مقتصراً في اكثره على وصف الرياض والأزهار كعندليب يقيل في ظلالها ويتنقل في افيائها ويغرد في انوارها يشدو بذكر المحبوب ويلهو بلذيذ المشروب قانعاً من دنياه بعيش مقرون بالعز وشرف النفس معتمداً على قول القائل « من قر عيناً بعيشه نفعه » .

وها استحسن ايراد نبذة من اشعاره التي تسنى لي جمعها ليستدل الناظر فيها على منزلته في الشعر وعلو كعبه في البديع وتفننه بانواع التشبيه التي كاد يضاهي بها براعة ابن المعتز الذي انفرد بهذه الصناعة ، فأقول :

قال الصنوبري كان اول شعر قلته وارتضيته قولي :

ماحل بي منك وقت منصرفي ما كنت الا وديعة التلف
كم قال لي الشوق قف لتلثمه فقال خوف الرقيب لا تقف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فكان قلبي في زي منعطف وكان جسمي في زي منصرف

كان للصنوبري ابن مسترضع فقطم فدخل الصنوبري يوماً داره والصبي يبكي فقال مالابني ، قالوا : فطم فتقدم الى المهد وكتب عليه ارتجالاً :

منعوه احب شيء اليه من جميع الورى ومن والديه
منعوه غذاه وقد كان مباحاً له وبين يديه
عجباً منه ذا على صغر السن هدي فاهتدى الفراق اليه

وله :

نار راح ونار خد ونار لحشا الصب بينهن استعار
ماابالي ما كان ذا الصيف عندي كيف كان الشتاء والامطار

وله :

ماقضى في الربيع حق المسرا ت مضيع زمانه في الخريف
نحن منه على تلقي شتاء بوجب القصف او وداع مصيف
في قميص من الزمان رقيق ورداء من الهواء خفيف
يرعد الماء منه خوفاً اذا ما لمسته يد النسيم الضعيف

وقال :

اني طربت الى زيتونة بطياس[1] بالصالحية بين الورد والآس
من يلمس عهدهما يوماً فلست له وان تطاولت الايام بالنامي
يا موطناً كان من خير المواطن لي لما خلوت به ما بين جلاسي
وقائل لي أفق يوماً فقلت له من سكرة الحب ام من سكرة الكاس
لااشرب الكأس الا من يدي رشإ مهفهف كقضيب البان مياس
مورد في الخد في قمص موردة له من الآس اكليل على الراس
قل للذي لام فيه هل ترى خلقاً يا املح الروض بل يا املح الناس

(١) بطياس قرية في باب حلب بين النيرب و بابلى وكانت قصراً لعلي بن عبد الملك ابن صالح امير حلب وقد خربت القرية والقصر وصار في موضعها بستان فستق يعرف الآن بكرم القصر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وله :

سقى حلباً سافك دمعه بطيء الرقوء اذا ما سفك
ميادينه بسطهن الرياض وساحاته بينهن البرك
ترى الريح تنسج من مائه دروعاً مضاعفة او شبك
كأن الزجاج عليها اذيـ ـب وماء اللجين بها قد سبك
هي الجو من رقة غيران مكان الطيور يطير السمك
وقد نظم الزهر نظم النجوم فمفترق النظم او مشتبك
كما درج الماء مر الصبا ودبج وجه السماء الحبك
بباهين اعلام قمص القيا ن ونقش عصائبها والتكك

وقال في دمشق وبعض متنزهاتها :

أمر بدير مران [1] فأحيا فأجعل بيت لهوي بيت لهيا
وتبرد غلتي برداً فسقيا لأيامي على بردا وسقيا
تفيض جداول البلور فيها خلال حدائق ينبتن وشيا
بكللة فواكههن ابهى الـ ـمناظر في مناظرنا واهيا
فمن تفاحة لم تعدُ خداً ومن رمانة لم تعدُ ثديا
ونعم الدار داريا [2] فنيها صفا لي العيش حتى صار ريا
ولي في باب جيرون ظباءٌ أعاطيها الهوى ظبياً فظبيا
صفت دنيا دمشق لمصطفيها فلست أريد غير دمشق دنيا

وله يفضل فصل الربيع على بقية الفصول :

ان كان في الصيف ريحان وفاكهة فالارض مستوقد والجو تنور
وان يكن في الخريف النخل مخترفاً فالارض محسورة والجو مأسور

(١) دير مران كان بالقرب من دمشق فوق تل مشرف على مزارع الزعفران ورياض جنة وبناؤه بالجص واكثر فرشه بالبلاط الملون وكان ديراً كبيراً وفيه رهبان كثيرة وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني والاشجار محيطة به اه معجم البلدان .

(٢) داريا من أمهات قرى غوطة دمشق ومنها يخرج العنب الزبني المنقطع النظير.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وان يكن في الشتاء الغيث متصلاً فالارض عريانة والجو مقرور
ما الدهر الا الربيع المستنير اذا جاء الربيع اتاك النور والنور
فالارض ياقوتة والجو لؤلؤة والنبت فيروزج والماء بلور
ما بعد النبت كأساً من سحائبه فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه لنا الورد منضود موردة بين المجالس والمنثور منثور
ونرجس ساحر الابصار ليس لما كانت له من عمى الابصار مسحور
هذا البنفسج هذا الياسمين وذا الـ ـنرين مذ قربا فالحسن مشهور
تظل تنثر فيه السحب لؤلؤها فالارض ضاحكة والطير مسرور
حيث التفت فقمري وفاختة يغنيان وشفتين وزرزور
اذا الهزاران فيه صوتا فهما بحسن صوتهما عود وطنبور
تطيب فيه الصحاري للمقيم بها كما تطيب له في غيرها الدور
من شم ريح تحيات الربيع يقل لا المسك مسك ولا الكافور كافور

وله :

ولم انس[1] ما عاينته من جماله وقد زرت في بعض الليالي مصلاه
و يقرأ في المحراب والناس خلفه ولا تقتلوا النفس التي حرم الله
فقلت تأمل ما تقول فانه فعالك يا من تقتل الناس عيناه

وله في المواعيد الكاذبة :

قال لنا نخلة وقد طلعت نخلتنا فاصطبر لطلعتها
حتى اذا صار طلعها بلحاً قال توقع بلوغ بسرتها
حتى اذا بسرها غدا رطباً قال اصطبر نيها تمرتها
فعد عن نخلة كنخلة عرقو ـ ب وعن قصة كقصتها

وله :

(١) هذه الابيات الثلاثة نسبها صاحب معاهد التنصيص الى ابي نواس وقد رأيتها في عدة كتب منسوبة الى الصنوبري .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولقبوه [1] بحب الظرف ليتهم ضاعوا كما ضاع وصف ذلك اللقب

ولنكتف هنا بهذا القدر من اشعار الصنوبري راجين من محبي الادب الحر يصين على إحياء ذكر هذا الشاعر ان يمدوا لنا يد المساعدة و يكتبوا الينا بما يظفرون به ممن ينسب اليه لنضيفه الى ماجمعناه وما نجمعه بعد ونعده للطبع ، وهنا نذكر اسماء الكتب التي استقصيناها للبحث عن آثار الصنوبري كيلا يتكبد غيري مشقة استقصاءها مرة ثانية فأقول هي : (العمدة لابن رشيق) (معاهد التنصيص) (التبيان شرح ديوان المتنبي) (الشريشي شرح مقامات الحريري) (خزانة الادب للحموي) (نفحات الازهار للنابلسي) (فوات الوفيات للكتبي) (معجم البلدان لياقوت) (تاريخ الشام الكبير لابن عساكر) (صبح الاعشى للقلقشندي) (نهاية الارب في فنون العرب) (زهر الآداب للقيرواني) (نزهة الانام في محاسن الشام) (مواسم الادب) انتهت .

(حلب) كامل الغزي

---

(١) حب الظرف عند اهل العراق هو الجرب . (المجمع) كذا جاءنا هذا البيت وهو غير مستقيم الوزن فلعل صوابه (ضاعوا كما ضاع منهم ذلك اللقب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net